الْحَمْدُ لِلهِ، الْحَمْدُ لِلهِ الغنيِّ الكريمِ، العزيزِ الحكيمِ، {فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} ... وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شرِيكَ لهُ، الغفورُ الحليمُ، {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، سبحانهُ وبحمده، {وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} ... وأشهدُ أنَّ مُحمَّدًا عبْدُ اللهُ ورسُولُهُ، ومصطفاه وخليله، النبيُ الأمِّيُ العظيمُ، {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}، صلَّى اللهُ وسلَّمَ وباركَ وأنعَمَ عليْهِ، وعلَى آلهِ وأصْحابِهِ أولي النهجِ القويمِ، والخُلقِ الكريمِ، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وسلَّمَ ...

أَمَّا بَعْدُ: فاتقوا الله عباد الله، واعلموا أن من تواضعَ لله رفعَهُ، ومن تكبرَ على الله وضعَهُ، ومن كان مع الله، كان اللهُ معَهُ، وإذا أردت أن تعرفَ قدركَ عندَ اللهِ، فانظر إلى قدر الصلاة عندك .. {مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ} ..

معاشر المؤمنين الكرام: حدَّثَ أبو هريرة رضي الله عنه أن امْرَأَةِ سَوْدَاءِ كَانَتْ تَقُمُّ المَسْجِدَ (أي تكنسُه وتنظفُه)، فَفَقَدَهَا رسولُ الله ﷺ فَسَأَلَ عَنْهَا، فقالوا: مَاتتَ، فقَالَ: "أَفَلا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي" .. فَكَأنَّهُمْ صَغَّرُوا أمْرَهَا، فَقَالَ: "دُلُّونِي عَلَى قَبْرِها"، فَدَلُّوهُ، فَصَلَّى عَلَيْهَا، ودعا لها .. صلواتُ ربي وسلامه وبركاته عليه .. وعَنْ أَنَسٍ : أَنَّ امْرَأَةً كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، فَقَالَ: "يَا أُمَّ فُلَانٍ انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ"، فَخَلَا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ أي وقفَ معها في ناحيةِ الطريقِ حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا (أي سؤالِها واستفسارِها) .. وأخرج الإمام أحمد، "أن يهوديًّا دعا النبي ﷺ إلى خبز شعير، وإهالة سنخة، فأجاب" .. والإهالة السنخة هي الشحم المتغير الرائحة والطعم .. وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدي إليّ ذراع أو كراع لقبلت" .. وكان ﷺ يخصفُ نعله، ويرقعُ ثوبه، ويحلبُ شاته، ويعلفُ بعيره، ويجيبُ دعوةَ الخادمِ، وينامُ على الحصيرِ حتى يؤثر في جنبه، ويجالس المساكين، ويأكلُ معهم، وكان من دعائه: "اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين" ..

إنه التواضع يا عباد الله .. فما أجملهُ من خلق، وما أحسنهُ من صفة، وما أروعهُ من سلوك، وصدقَ اللهُ تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ}، وصدقَ اللهُ: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} .. وهكذا كان صحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين: فقد كانَ أبو بكرٍ يحلبُ الشَّاةَ لجيرانِه، ويسقط الخِطامُ من يده، فينيخُ الناقة ويأخذه، فيقال له: لو أمرتنا نناوله لك !! فيقول: "إن خليلي ﷺ أمرني أن لا أسألَ الناسَ شيئًا".. وهذا أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب وبعد أن بلغت الدولة في عهده قمة قوتها وتوسعها فيحمل على عاتقه قربة ماءٍ ويمشي بها بين الناس، فيقال له: يا أمير المؤمنين: لا ينبغي لك هذا، فيقول: لمّا أتاني الوفودُ سامعين مُطيعين دخلت نفسي نخوة، فأردت أن أكسرها" .. وكانَ عثمانُ وهو خليفةٌ يَقِيلُ في المسجدِ ويقومُ وقد أثرَ الحصى في جنبِه .. وكانَ عليٌّ رضي الله عنه يحملُ التَّمرَ في ملحَفةٍ ويرفضُ أن يحملَه عنه غيرُه .. وقال علي بن ثابت: "ما رأيت سفيان الثوري في صدر المجلس قط، إنما كان يقعد إلى جانب الحائط، ويستندُ إلى الحائط، ويجمعُ بين ركبتيه" .. ولما بلَغَ عُمرَ بنَ عَبْدِ العَزيزِ أنَّ ابْنًا لَهُ اشْتَرى خَاتمًا بألْفَ دِرْهَمٍ، كَتب إلِيه: "بَلَغني أنكَ اشْتَريت فَصًا بألْفَ دِرهَمٍ، فإذَا أتَاك كِتَابي فَبعْ الخَاتِمَ، وأشْبَع بهِ ألْفَ بَطْنٍ، واتخِذ خَاتمًا بدْرهمِين واكْتُبْ عَلِيه: "رَحِم اللهُ امْرءاً عَرفَ قَدْرَ نَفْسِه".. وصدقَ القائلُ:

وأقبحُ شيءٍ أن يرى المَرءُ نفسَهُ \*\* رفيعاً وهو عندَ العالمينَ وضيعُ

تواضَعْ تكنْ كالنجمِ لاحَ لناظرٍ \*\*\* على طبقاتِ الماءِ وهو رفيعُ

ولا تكُن كالدُّخانِ يعلو بنفسهِ \*\*\* إلى طبقاتِ الجوِّ وهو وضيعُ

وصدق المولى الكريم: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} ..

احبتي الكرام: ليس هناك أرقى للعبد ولا أرفعَ في منزلته ومكانته بين الناس وعند ربه جلَّ وعلا من خُلق التواضع، يقول المصطفى ﷺ: "من تواضع لله رفعه"، أي رفع مقامه بين الناس، ورفع ذكرهُ فيما بينهم، ورفع أجرهُ عند الله تعالى، ورفع منزلتهُ في الجنة، فهو يتقلبُ في رفعةٍ من بعد رفعة ..

التواضعُ أيها الكرام: صفةٌ من أجمل صفاتِ المؤمنين، بل هو العلامةُ المميزةُ لأنبياء اللهِ وأصفياءه، فقد أخرج مُسلمٌ في صحيحه، قال رسول الله ﷺ: "إن الله تعالى أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخرَ أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد"، وفي الحديث الآخر: "ما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا، وما تواضعَ أحدٌ لله إلا رفعه" .. فكونوا يا عباد الله: هينينَ لينين، متواضعينَ منصفين .. أحِبُّوا لغيركم ما تُحبُّونَهُ لأنفسِكم، واكرهوا لغيركم ما تكرهُونَهُ لأنفسِكم، وأحسِنوا لهم كما تُحبُّونَ أن يُحسِنوا إليكم، وافعلوا معهم ما تُحبُّونَ أن يفعلوهُ معكم، وقولوا لهم ما تُحبُّونَ أن يقولوهُ لكم، وامنعوا عنهم ما تُحبُّونَ أن يمنعُونَهُ عنكم، ففي الحديث الصحيح: لا يُؤمِنُ أحدكم حتى يُحبَّ لأخيهِ ما يُحِبهُ لنفسهِ .. ارحمِوا المساكينَ، وأحسنْوا إلى المحتاجين، اعطفْوا على الصغيرِ، واحترمْوا الكبيرَ، وسلِّمْوا على العاملِ، وابتسمْوا في وجهِ الخادمِ، وتجاوزوا عن الأخطاءِ، واقبلوا الأعذارَ، وتذكّرْوا أنَّ أحبَّ الأعمالِ إلى اللهِ تعالى سرورٌ تدخلُونهُ على مسلمٍ، وما أسهلهُ من عملٍ لمن سهلهُ اللهُ عليه ..

اللهم اهدنا لأحسنِ الأخلاقِ لا يهدي لأحسنِها إلا أنت، واصرف عنّا سيئَها لا يصرف سيئَها إلاّ أنت ..

أقول ما تسمعون ...

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلاماً على عباده اللذين اصطفى ..

أما بعد: فاتقوا الله عباد الله وكونوا مع الصادقين ...

معاشر المؤمنين الكرام: يقالُ أنَّ قصةً طريفةً حدثت على متن احدي الطائرات، فمع بداية الرحلة: تفاجئ أحدُ الركابِ من ذوي البشرةِ البيضاءِ بجلوس رجُلٍ اسودِ البشرةِ بجانبه، فتضايقَ واضطرب، ولم يكتف بذلك، بل استدعى المضيفَ وقال لهُ بصوتٍ عالٍ: كيف تُجلسوني بجوار هذا الرجُلِ الاسودِ المقرفِ البشِع، عليكم فوراً أن توفروا لي مقعداً بديلاً .. فقال له المضيف: اهدأ قليلاً وسوفَ أحلُ المشكلة .. وعاد المضيفُ بعد دقائق ليقول له: لم اجد اي مقعدٍ شاغرٍ إلا في الدرجة الاولي فقط، ولذا فقد أخبرت قائد الطائرة بالمشكلة، فقال: ليس من المعتاد أن يُسمحَ لركاب الدرجة السياحية بالانتقال إلى مقاعد الدرجة الاولي، لكن لأنه ليس من اللائقِ أبداً الجلوسُ بجوارِ شخصٍ مُقرفٍ بشع، ثم سكت المضيفُ لحظةً .. ليلتفت بعدها إلى الرجُلِ الاسودِ قائلاً له: سيدي: كابتنُ الطائرةِ يدعوكَ للدرجةِ الاولي، هناك مقعدٌ شاغرٌ ينتظركَ ..

يقول الأمامُ ابن الجوزي رحمه الله: "عجبتُ لمن يُعجبُ بصورته، ويختالُ في مشيته، وينسى مبدأَ أمرهِ ونهايته، فإنما أولهُ لقمة، ضُمت إليها جرعة ماء، فاستحالت إلى قطرات منيّ، حركتهُ الشهوة، فصُبَّ في رحم الأم، ليخرج بعد مُدةٍ طفلاً يتقلب في خِرق البول، وآخره: يُلقى في التراب فيأكلهُ الدود، ويصيرُ جيفةً ورُفاتًا".. وهو فيما بين ذلك يحملُ في جوفه العَذِرة ...

الكبرُ يا عباد الله: هو أن ترى نفسكَ أفضلَ من غيرك .. الكبر: خلقٌ شيطانيٌ ذميم، موجبٌ لغضب الرحمن، وسببٌ من أكبر أسبابِ الحرمان .. وهو أولُ ذنبٍ عُصيَ اللهُ به، فبسببه أُخرجَ إبليسُ من ملكوت السماء، وطردَ من رحمة أرحم الرحمين ... الكبر: مرضٌ خطير، وداءٌ مُهلك، مانعٌ من محبة الله جلَّ وعلا: {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ}، {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} .. والكبر صارفٌ عن الحق، يقول تبارك وتعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} .. كما أنه سببٌ للختم على القلوب، قال تعالى: {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}.. وفي الحديث القدسي: "قال الله تعالى: الكبرياء ردائي، والعزة إزاري، فما نازعني في واحدٍ منهما عذَّبتهُ" .. وفي الحديث المتفق عليه: يقول ﷺ: "ألا أخبركم بأهل النار، كل عُتُلٍ جواظٍ مُستكبر" .. وفي صحيح مُسلم، يقول النبي ﷺ: "لا يدخلُ الجنَّةَ من كان في قلبه مِثقالُ ذرةٍ من كبر" ..

والكبرُ له مظاهرُ لا تخفى، منها ما بينه النبي ﷺ بقوله: الكبرُ بطرُ الحقِّ وغمطُ الناس"، وغمطُ الناس أي انتقاصُهم، وبَطرُ الحقِّ أي ردُّه وعدمُ قبوله .. كما في قصة الرجل الذي أكل بشماله، فقال له عليه الصلاة والسلام: "كُلْ بيمينك"، فقال: لا أستطيع، قالها تكبراً عن الاستجابة لرسول الله ﷺ، فدعا عليه المصطفى ﷺ بقوله: "لا استطعت، ما مَنَعَهُ إلا الكِبْر"؛ فما استطاع أن يحركها، والحديث في مسلم .. ومن وصية لقمان الحكيم لابنه: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} .. ومن التوجيهات القرآنية الحكيمة: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً} ... ومن مظاهر الكبر: الاختيالُ في المشية، وإسبالُ الثياب، يقول عليه الصلاة والسلام: "بينما رجل يمشي في حُلةٍ تُعجبهُ نفسه، مرجِّلٌ جُمّتهُ، إذ خسفَ الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة" رواه البخاري

ألا فاتقوا الله عباد الله وتواضَعُوا لله تعالى، فمن تواضع لله رفعه، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: "ثلاثة أقسم عليهن: ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما نقص مالٌ من صدقة، وما تواضع عبدٌ لله إلا رفعه" .. وفي الكتاب العزيز: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} ..

أيّها المسلمون، إنّما ثمرةُ الاستماعِ الانتفاع، ودليلُ الانتفاعِ الاتّباع، فطوبى لمن استمعَ فانتفعَ وأطاع، {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ} ..

وكما بدأنا بحمد الله نختمُ به .. سبحان ربك ...